مطبوعات مكتبة مصر

الإسراء والمعراج

عبد الحميد جوده السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الإسراء والمعراج

لم يكثر المحدثون فى حديث كما فعلوا فى حديث الإسراء ، و لم يتركوا الأعنة لأخيلتهم فى حديث آخر مثلما أطلقوها فى هذا الحديث . فرحلة السماء قد استهوت أهل الأرض وحركت الخيال ليتصور ما يشاء من الأعاجيب ، ولما كان علم ذلك الزمان محدودا عن الكون والفضاء والسماوات العلى ، فلم تستطع علومهم أن تمد أخيلتهم إلا ببعض ما لمسوه فى حياتهم وما تمنته عقولهم التى كانت ترى أن النعيم أنهار وظل ظليل ، وأن وسيلة الانتقال بين الأرض والسماء لا يمكن أن تكون غير دابة فوق الحمار ودون البغل تسير بسرعة البرق ، وقد عبروا عنها بالبراق يضع حوافره عند منتهى طرفه . و لم يستطيعوا أن يتصوروا السماوات غير تصورهم للأرض فجعلوا لها أبوابا تدق . ولما كانوا فى الغالب تجارا فقد جعلوا لله سبحانه وتعالى بعض صفة التجار يقبل الفصال فى فريضة قد فرضها قالوا : إن الله جل شأنه قد فرض على المسلمين خمسين صلاة كل يوم ، وإن موسى عليه السلام قال للنبى — ﷺ — إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإنى خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك : فرجع الرسول عليه السلام فوضع الله عنه عشرا . فرجع إلى موسى فنصحه أن يرجع إلى ربه يسأله التخفيف فوضع

عنه عشرا . وظل يغدو ويروح بين ربه وبين موسى حتى أمر بخمس صلوات كل يوم ثوابها خمسين . فقال له موسى : إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم ، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فقال محمد ـــ ﷺ : سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم . فنفذت فنادى مناد قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى .

وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وابن مسعود وأبى ذر ومالك بن صعصعة وأبى هريرة وأبى سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبى بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبى حبة وأبى ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبى أيوب وأبى أمامة وسمرة بن جندب وأبى الحمراء وصهيب الرومى وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين . منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره . وإن الفاحص لهذه الأحاديث يجد فى يسر أن هناك حقيقة أضيفت إليها إضافات كثيرة بعضها ذكى وبعضها منكر وغريب ، فالحقيقة قد جاءت فى القرآن واضحة لا لبس فيها : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾(١) ، ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد

(١) الإسراء .

رآه نزلة أخرى* عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾[1] . وحول هذه الحقيقة نسجت روايات وأقاصيص تزعم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد رواها . وقبل أن أناقش ما جاء فى أحاديث الإسراء سأحاول على قدر الإمكان أن أسرد الحديث فى تتابع ، وأن أدخل أحاديث الرواة بعضهم فى بعض وأن أسقط الخلافات الطفيفة .

قيل إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال بعد أن قص قصة شق صدرة ثم غسله بماء زمزم . ثم صب الحكمة من طست من ذهب فى قلبه :

ـ بينا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل عليه الصلاة والسلام فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فعدت لمضجعى ، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا فأخذ بعضدى فقمت معه ، فخرج بى إلى باب المسجد فأتيت بالبراق وهو دابة ، أبيض فوق الحمار ودون البغل ، مضطرب (طويل) الأذنين وكان مسرجا ملجما ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فلما دنوت منه استصعب ومنع ظهره أن يُركب فقال جبريل :

ـ اسكن ، فما ركبك أحد أكرم على الله من محمد .

فركبته ثم سرت وجبريل لا يفارقنى ، فإذا بعجوز على جانب الطريق فقلت :

ـ ما هذه يا جبريل ؟

قال :

---

(١) النجم ١ ـ ١٧ .

ــ سر يا محمد .

فسرت ما شاء الله أن أسير ، فإذا شيء يدعوني متنحيا عن الطريق فقال :

ــ هلم يا محمد .

فقال لى جبريل :

ــ سر يا محمد .

فسرت ما شاء الله أن أسير ، فلقيني خلق من خلق الله فقالوا :

ــ السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر.

فقال لى جبريل :

ــ اردد السلام يا محمد .

ثم انتهيت إلى بيت المقدس فأوثقته (البراق) بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت به ركعتين ، ثم قال لى جبريل :

ــ أما العجوز التى رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقى من عمر تلك العجوز . أما الذى أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه ، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

واستوينا فى صرحة المسجد فقال جبريل :

ــ يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟

فقلت :

ــ نعم .

فقال :

ــ فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن .

وكن جلوسا عن يسار الصخرة فأتيتهن فسلمت عليهن ، فرددن على

السلام فقلت :

ـــ من أنتن ؟

فقلن :

ـــ نحن خيرات حسان ، نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا ،

ثم أتانى جبريل عليه السلام بإناءين أحدهما خمر والآخر لبن ، فشربت اللبن وأبيت الخمر فقال جبريل :

ـــ أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير . ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل عليه السلام فقدمنى فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل :

ـــ يا محمد أتدرى من صلى خلفك ؟

قلت :

ـــ لا .

قال :

ـــ صلى خلفك كل نبى بعثه الله عز وجل .

ثم أتيت بالمعراج الذى كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء ، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج . أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا إلى السماء فإنما يشق بصره طامحا إلى السماء عجبه بالمعراج ؟ فصعدت أنا وجبريل فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك . فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل :

ـــ من هذا ؟

قال :

ـــ جبريل

قيل :

ـــ ومن معك ؟

قال :

ـــ محمد .

قيل :

ـــ أو قد بعث إليه ؟

قال :

ـــ نعم .

فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول :

ـــ روح طيبة ونفس طيبة ، اجعلوها فى عليين .

ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول :

ـــ روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين .

فمضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها .

قلت :

ـــ يا جبريل ، من هؤلاء ؟

قال :

ـــ هؤلاء من أمتك يأكلون الحرام ويتركون الحلال .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ثم يخرج من أسافلهم . فسمعتهم يضجون إلى الله

عز وجل فقلت :

ـــ من هؤلاء يا جبريل .

قال :

ـــ هؤلاء من أمتك ﴿ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[1] .

ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بنساء تعلقن بثديهن فسمعتهن يضججن إلى الله عز وجل قلت :

ـــ يا جبريل من هؤلاء النساء ؟

قال :

ـــ هؤلاء اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر ، فيقول اللهم لا تقم الساعة . وهم على سابلة آل فرعون فتجىء السابلة فتطؤهم . فسمعتهم يضجون إلى الله فقلت :

ـــ يا جبريل من هؤلاء ؟

قال :

ـــ هؤلاء من أمتك ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾[2] .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه . فقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت :

ـــ يا جبريل من هؤلاء ؟

قال :

---

(١) النساء ١٠ .　　　(٢) البقرة ٢٧٥ .

ـــ هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون .

ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله عز وجل قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب . قلت :

ـــ يا جبريل من هذا ؟

قال :

ـــ هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه .

فسلمت عليه فرد على . ثم صعدنا إلى السماء الثالثة واستفتح فإذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام ومعهما نفر من قومهما فسلمت عليهما وسلما على ، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بادريس قد رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه وسلم على . ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها قلت :

ـــ يا جبريل من هذا ؟

قال :

ـــ هذا المحبب فى قومه . هذا هارون بن عمران ومعه . نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم على . ثم صعدت إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى ابن عمران رجل آدم(١) كثير الشعر لو كان عليه قميص لنفذ شعره دون القميص ، فإذا هو يقول : يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله منى . قلت :

ـــ يا جبريل من هذا ؟

قال :

---

(١) الرجل الآدم : الأسمر .

— هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من قومه .

فسلمت عليه وسلم على . ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال ، قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ومعه نفر من قومه :

فسلمت عليه فسلم على . وإذا أنا بأمتى شطرين : شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد .

فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير ، فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور ، ثم خرجت أنا ومن معى .

والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا كل ورقة منها تكاد تغطى هذه الأمة . وإذا فيها عين تجرى يقال لها سلسبيل . فينشق منها نهران أحدهما الكوثر والآخر يقال له نهر الرحمة . فاغتلست فيه فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر . ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية قلت :

— لمن أنت يا جارية ؟

قالت :

— لزيد بن حارثة .

وإذا بأنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى . وإذا رمانها كالدلاء عظما . وإذا

بطيرها كأنها بختكم(١) هذه .

إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم عرجت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها . ثم أغلقت دونى . ثم إنى رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى . وفرضت على خمسون صلاة وقال :

— لك بكل حسنة عشر ، فإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة ، فإذا عملتها كتبت لك عشرا . وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء ، فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة . ثم رجعت إلى موسى فقال :

— بم أمرك ربك ؟

فقلت :

— بخمسين صلاة .

قال :

— ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، ومتى لا تطيقه تكفر .

فرجعت إلى ربى فقلت :

— يا رب خفف عن أمتى فإنها أضعف الأمم .

فوضع عنى عشرا وجعلها أربعين ، فما زلت أختلف بين موسى وربى كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته حتى رجعت إليه ، فقال لى :

— بم أمرت ؟

---

(١) البخت : الإبل .

فقلت :

ـــ أمرت بعشر صلوات .

قال :

ـــ ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

فرجعت إلى ربى فقلت :

ـــ أى ربى خفف عن أمتى فإنها أضعف الأمم .

فوضع عنى خمسا وجعلها خمسا ، فنادى ملك عندها : تممت فريضتى وخففت عن عبادى وأعطيتهم بكل حسنة عشرا من أمثالها .

ثم رجعت إلى موسى فقال :

ـــ بم أمرت ؟

فقلت :

ـــ بخمس صلوات .

قال :

ـــ ارجع إلى ربك فأنه لا يؤوده شىء فاسأله التخفيف لأمتك .

فقلت :

ـــ رجعت إلى ربى حتى استحييت .

واجتمع بالأنبياء مرة أخرى فى بيت المقدس وصلى بهم فيه . ثم إنه ركب البراق وكر راجعا إلى مكة .

وقيل إن الرسول عليه السلام قال : « لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة ، فظعت وعرفت أن الناس مكذبى » . فقعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال كالمستهزىء :

ـــ هل كان من شىء ؟

ـــ نعم .

ـــ وما هو ؟

— إنى أسرى بى الليلة .

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

— ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

— نعم .

فقال أبو جهل :

— يا معشر بنى كعب بن لؤى .

فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال :

— حدث قومك بما حدثتنى .

وحدثهم عليه السلام بحديث الإسراء ، وقيل إن الرسول عليه السلام قال لما قالوا له :

— وتستطيع أن تنعت لنا المسجد :

— فما زلت أنعته حتى التبس بعض النعت . فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه .

فقال القوم :

— أما النعت فوالله لقد أصاب فيه .

وقيل إن رسول الله — ﷺ — قال : « فأخبرتهم بعير لقريش لما كنت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وأنها نفرت . فلما رجعت وجدتها عند العقبة وأخبرتهم بكل رجل وبعير ، كذا وكذا ومتاعه كذا وكذا » .

وقال أبو ذر : سألت رسول الله — ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور إنى أراه » .

هذه خلاصة أحاديث الإسراء صحيحها وحسنها وضعيفها ، وقد

جمع الذهبى أحاديث الإسراء فى جزأين . وقبل أن أناقش هذه الأحاديث سأثبت ما قاله ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم قال :

« وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله — ﷺ — من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسراآت متعددة ، فقد أبعد وأغرب(١) ، وهرب إلى غير مهرب ، و لم يتحصل على مطلب .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشىء يخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جدا و لم ينقل هذا عن أحد من السلف . ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبى — ﷺ — به أمته ولنقله الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة الزهرى : « كان الإسراء قبل الهجرة بسنة » ، وكذا قال عروة وقال السدى : « بستة عشر شهرا والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد إلى السماء

---

(١) قال عبد الوهاب الشعرانى إنه أسرى بالنبى ﷺ أكثر من ثلاثين مرة بعدد أحاديث الإسراء ، فقد جعل من كل رواية خالفت الأخرى مرة .

الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع فتلقاه فى كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين فى السماوات بحسب منازلهم ودرجاتها حتى مر بموسى الكليم فى السادسة ، وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ عليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أى أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائه جناح ، ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسندا ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية ، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هناك الصلوات الخمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده ، وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم فى السماء . والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى . ثم لما فرغ من الذى أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام ، وله فى ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم . وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن

والخمر أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه فى بيت المقدس وجاء أنه فى السماء ، ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم ، والله أعلم .

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط على قولين : فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناما ، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ ، رأى قبل ذلك مناما ثم رآه بعده يقظة لأنه عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾(١) . فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شىء و لم يكن مستعظما ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم . وأيضا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد : وقد قال « أسرى بعبده ليلا » : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس »(٢) . قال ابن عباس : هى رؤيا عين أريها رسول الله ــ ﷺ ــ ليلة أسرى به . وقال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾(٣) . والبصر من آلات الذات لا الروح ، وأيضا فإن حمل على البراق وإنما يكون هذا للبدن لا الروح لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب عليه . (انتهى كلام ابن كثير) .

وجد القصاص فى الإسراء مادة خصبة لقصصهم فجروا وراء شطحات الخيال ورووا مناكير وغرائب لا تثبت للنقد ، وإن المدقق فى هذه الأحاديث التى نسبت ظلما إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) الإسراء ١ .
(٢) الإسراء ٦٠ .
(٣) النجم ١٧ .

ليرى بصمات أصابع اليهود الذين أسلموا أو الذين تظاهروا بالإسلام والكذابين من الرواة الذين يستهويهم كل غريب . أو الذين ينقلون عن التوراة والإنجيل بحسن نية حاسبين أن ذلك النقل يخدم الإسلام ، وما كانت أساطير الأولين تخدم الأديان .

زعموا أن الرسول عليه السلام قال : « فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته .. » فمن ذا الذى يصدق من المسلمين أن الرسول العظيم الذى نزه الله سبحانه وتعالى عن التشبيه يقول مثل هذا الزعم ؟ إن القول بأن الله خلق آدم على صورته لم يقل به الإسلام بل جاء هذا الزعم فى التوراة التى كتبت فى بابل بعد أن حرق بختنصر كل نسخ التوراة !

وقالوا : إن الله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين خمسين صلاة وأن موسى عليه السلام كان يقول له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فما زال محمد عليه السلام يختلف بين موسى وربه حتى جعلها الله خمسا وأعطى بكل حسنة عشرا من أمثالها . فلماذا موسى عليه السلام بالذات ، أما كان إبراهيم الخليل أبو الأنبياء جميعا ، إبراهيم الذى وفى أولى بذلك ؟ لو أن ذلك الزعم قد حصل ، أو يمكن أن يتصور ذو لب رشيد أن مثل ذلك الحوار الذى لا يمكن أن يقوم إلا بين تجار مشاكسين يدور بين رب العزة وبين رسوله ؟!

والآية الكبرى على أن اليهود الذين أسلموا والذين كانوا ينقلون من التوراة والإنجيل بحسن نية أو بسوء قصد قد وضعوا أحاديث الإسراء أو عبثوا بها ، إنهم اقتفوا فى كل ما قالوا آثار رؤيا يوحنا اللاهوتى التى جاءت فى آخر الأناجيل . وسأنقل لك بعض فقرات منها لترى أن النبع واحد وأن واضعى أحاديث الإسراء وإن رفعوها إلى صحابة رسول الله ﷺ ، قد

كذبوا على الرسول عليه السلام ، ورووا مناكير وغرائب وأكاذيب .

جاء فى الإصحاح الرابع من رؤيا يوحنا اللاهوتى : « بعد هذا نظرت إذا باب مفتوح فى السماء والصوت الأول الذى سمعته كبوق يتكلم معى قائلا :

ـــ اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا . وللوقت سرت فىَّ الروح ، وإذا عرش موضوع فى السماء وعلى العرش جالس ، وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد . وحول العرش أربعة وعشرون عرشا ، ورأيت على العرش أربعة وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رءوسهم أكاليل الذهب . ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات . وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح الله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور . وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء . والحيوان الأول شبه أسد والحيوان الثانى شبه عجل والحيوان الثالث له وجه إنسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر . والأربعة الحيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها من داخلها مملوءة عيونا ولا تزال نهارا وليلا قائلة : قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شىء ، الذى كان والكائن والذى يأتى . وحينما تعطى الحيوانات مجدا وكرامة وشكرا للجالس على العرش الحى إلى أبد الآبدين ، يخر الأربعة والعشرون شيخا قدام الجالس على العرش ويسجدون للحى إلى أبد الآبدين ، ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين : أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة ، لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهى بإرادتك كائنة وخلقت » .

كان قصاص أحاديث الإسراء يسيرون على نهج رؤيا يوحنا اللاهوتى ،

وكانوا يحاولون أن يجسدوا بعض آيات القرآن بأحداث تجرى فى السماء فصوروا الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فى صورة بشعة واستشهدوا بآية ﴿ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾(١) . ولم يزعجهم فى قليل ولا كثير أن هذه الآية لم تنزل إلا فى المدينة بعد الإسراء بسنين !

وصوروا الذين يأكلون الربا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر ، وجعلوا جبريل عليه السلام يتلو : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾(٢) . كأنما جبريل لا يعلم أن هذه الآية لم تكن قد نزلت بعد وأنها ستتنزل فى المدينة بعد الإسراء بسنين !

قد يقول قائل ممن يستهويهم الجدل : إن جبريل كان على علم بأم الكتاب فقال ما قال قبل أن تنزل هذه الآيات على الرسول عليه السلام ، والرد بسيط : فلو أنه قالها حقا لكانت مكية لا مدنية ولوجب على الرسول صلوات الله وسلامه عليه تلاوتها على المؤمنين ، وما حدث شىء من هذا ولا قال به قائل حتى الذين يفترون على الله الكذب .

ولم يعرف هؤلاء الرواة من أنهار الدنيا غير النيل والفرات ، وكذلك كان حال يوحنا اللاهوتى . أما من أنهار الآخرة فلم يذكروا إلا الكوثر وقد أخذوا ذلك عن القرآن .

وتصوروا أن للسماء أبوابا كما تصور يوحنا اللاهوتى . وقالوا إن المعراج كالسلم له درج يصعد فيها . وقد أخذوا هذه الفكرة عن حلم يعقوب فى التوراة فقد رأى فى الحلم أنه يصعد إلى السماء فى سلم ، وأن

---

(١) النساء ١٠ . (٢) البقرة ٢٧٦ .

الملائكة تهبط من السماء فى ذلك السلم . وقد أتعبهم فأتعبوا الذين جاءوا من بعدهم أنهم كانوا يحاولون أن يصوروا أشياء غير حسية بحواسهم البشرية القاصرة عن إدراك حقائق الكون وبقليل مما اكتسبوا من العلم . فلو عرفوا أن المادة الصلبة مجرد كهارب فى رتبة اهتزاز معينة لما خدعتهم حقيقة المادة الصلبة التى تشبثوا بها فى الإسراء على البراق والمعراج على السلم ، لأمكنهم أن يتصوروا إمكان الإسراء بلا مطية والصعود إلى السماء بلا سلالم .

إن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولا على شىء ، إنه كان يسبح فى الفضاء بقدرة الله التى لا تحد بعد أن أصبح حقيقة كونية فى غير حالتها الأرضية الناقصة ، فإن كان قد قيل إنه ركب البراق فقد يكون المقصود البرق أو أية قوة كهربية . ولا يمكن فى حالة إسراء الله بعبده أن تجرى أحكام الحواس ولا أحكام المادة .

وقيل فى حكمة ركوب البراق مع أن الله قادر على أن يطوى الأرض له طيا : إن ذلك كان تأنيسا له بالعادة فى مقام خرق العادة ، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركب سنى يحمل إليه فى وفادته إليه ، فعامله الله تعالى بذلك تأنيسا له وتعظيما .

وأقول أين استقبال ملوك الأرض للوافدين عليهم من استقبال ملك الملوك لرسوله ؟ فإذا كان ملوك الأرض يبعثون بعثات الشرف لاستقبال زائريهم وطيارات لتحيتهم فى الجو ، أفيبعث الملك الجبار تأنيسا لرسوله وتعظيما دابة فوق الحمار ودون البغل ؟ وإذا أراد أن يعرج به إلى السماء ليريه من آياته الكبرى أيقيم له سلما يصعد فيه ، ومن حولنا ٣٠٠ بليون سلم تحيط بنا من كل جانب هى الذبذبات التى أصبحت معروفة فى

الطبيعة[١] ؟!.

وقد أظهر المنكرون للإسراء دهشتهم من ذهاب الرسول عليه السلام إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة فى ليلة واحدة . وهنا نقف قليلا لنسأل : ما الزمن ؟ إننا إذا تخلصنا من هذه الأرض المادية واحتللنا مكانا مستقلا لا يربطنا بجاذبيتها ولا بقوانينها سوف لا نشعر بالزمن الذى تعودنا عليه ، ولا يصبح للعمر أو للفناء لدينا أى معنى . إننا عندئذ لا نعرف سوى — اللازمن — أى الخلود — لا ماض ولا مستقبل ولكن الحاضر وحده هو الذى نعيش فيه[٢] .

ويقول أينشتين واضع نظرية النسبية : إنه ليس للزمن من حقيقة قائمة بذاتها وأنه من خواص المادة ، وإن المستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضى ، ففى كل لحظة نحن نقتطع من المستقبل جزءا نضمه إلى الماضى فلا ينقص هذا ولا يزيد ذاك لأن كلا منهما لا نهائى وإن المستقبل يلتف على شكل دائرة وبذا يدخل فى الماضى إذ الدائرة علامة أبدية .

وبحسب نظرية النسبية تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعة الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعا أما الأحداث المجسمة التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها مادة ، أو بحسب تعبير أينشتين أن المادة هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعة الطبيعية للضوء وهى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . ولو أن هذه المادة عادة تتذبذب بسرعة الضوء لاختفت و لم تعد تدركها حواسنا . فنحن إذا أمسكنا فى يدنا بقطعة من

---

(١) الإنسان روح لا جسد . للدكتور رءوف عبيد .

(٢) أسرار الكون . نقله إلى العربية الدكتور سيد رمضان هدارة .

الحديد شعرنا بصلابتها ولكنها فى الواقع ليست صلبة ، وكل ما حدث هو أن حاسة اللمس قد تأثرت باهتزاز الألكترونات فشعرنا بصلابتها كما نشعر بنفس الكيفية بحرارتها أو ببرودتها ، فتنقل حواسنا أو عقولنا صورة الحديد وحرارته أو برودته . ونفس القول يصدق على جميع عناصر العالم الذى نعيش فيه والذى يبدو لنا صلبا ولا هو بصلب ولا مادى .

ولذا يتساءل المرحوم الدكتور مشرفة وهو بصدد شرح نظرية النسبية : كيف تبدو الأشياء لراصد يسير بسرعة الضوء ؟ ويجيب بأن الإشعاع الذى يصاحب هذا الراصد جنبا إلى جنب يبدو له مادة صلبة . أما الأشياء المادية التى تمر به بسرعة الضوء فتكون إشعاعا .

فما رأى السادة الماديين الذين يحترمون حواسهم فى هذه الحقائق العلمية التى أثبتتها المعادلات الرياضية ؟ ويا ترى ما رأى القصاص الذين رووا أن الرسول عليه السلام فى صعوده إلى بيت المقدس وفى عودته إلى مكة رأى قوافل قريش ، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوه يشرب من إناء كان على ظهر بعير فى قافلة ، فى هذه الحقائق المذهلة التى يحتويها الكون الذى خلقه بديع السماوات والأرض ؟

ولو كان القصاص الذين رووا أحاديث الإسراء روايات مادية كل أدواتها دابة فوق الحمار ودون البغل وشجرة نبق وذهب ولؤلؤ ومرجان وياقوت ورفرف أخضر وأجنحة ملائكية وعسل وخمر ولبن يعرفون أنه إذا انطلق شعاع ضوئى فى الفضاء بسرعته العادية وهى ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية تقريبا فإنه يسير فى دائرة كونية ويعود إلى مكانه الأصلى بعد زمن يزيد قليلا على مائتى مليون سنة ضوئية(١) . أما كانوا يخجلون من تصوير

---

(١) العالم وإينشتين : تأليف لينكولن باونت ترجمة الأستاذ محمد عاطف البرقوقى .

آيات الله الكبرى بشجرة أوراقها كآذان الفيلة أو الورقة منها تظل الخلق أو تكاد الورقة منها تغطى هذه الأمة ، وإذا ثمارها كالقلال أو بقباب اللؤلؤ أو بتراب المسك ؟!

ولم يجهد القصاص أنفسهم قليلا لما رووا أحاديث الإسراء ولم يستحوا من الله ورسوله فقالوا على لسان النبى — ﷺ : ثم أتيت بالمعراج الذى كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء فصعدت أنا وجبريل ، فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد بعث ؟ قال نعم . فلو صدقنا أن للسماء بابا وأن جبريل قد دقه وأن الملائكة قالت من هذا ؟ وأنها لم تعرف الطارق ولم تعرف الضيف الكريم الذى وفد عليهم من الأرض . أيمكن أن نصدق أن الملائكة أو خزنة الجنة أو خزنة النار لم تكن تعرف أن النبى عليه السلام قد بعث ؟ إن أهل الأرض قد سمعوا برسالته وإن نفرا من الجن قد آمنوا به . أو نصدق أن ملائكة الله لم يدروا بمبعثه ؟! لو صدقنا القُصّاص فى هذا لوجب علينا أن نلغى عقولنا أو نستخف بالملائكة ونرميهم بالجهل والغفلة !

ومن جرأة القصاص على الله تطوعهم لوصف سدرة المنتهى . فقالوا إنها شجرة يخرج منها النيل والفرات والكوثر وسيحان وجيحان ، أوراقها مثل آذان الفيول ، وأن الورقة الواحدة لو ظهرت لغطت هذه الدنيا ، وإذا ثمرها كالقلال (الواحدة تسع قربتين ونصفا) . وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وأنوار متعددة وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ، مع أن سدرة المنتهى هى « سدرانا مولتانا » النجم الأخير فى المجموعة الكونية . وقد غشيه نور ربه . فليس فى الكون حقيقة ثابتة إلا النور[1] : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ ، ﴿ وأشرقت الأرض

---

(١) إينشتين .

بنور ربها ووضع الكتاب ﴾ .

وقد قال صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى :

« إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ويسيرون وراء ما يمليه عليهم علمهم القاصر ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ووزن كل ما جاء عن الرسول عليه السلام بميزان فكره قلما يؤمن إيمانا صحيحا . فإذا راقك من العقل ما يشقشق به فى بعض الأحيان ، لم يلبث أن يسوءك منه ما يهذى به فى وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الإنسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلوم من صفاتها الذاتية وأغراضها اللازمة . وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله وبلغته حدود علمه ليس مؤمنا بالرسول على الحقيقة ، وإنما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا بما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه العقول التى لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات وما تنتزعه منها من المعقولات الثابتة . مما هو راجع إليها ومتوقف عليها وتصورات الله لا نهاية لها وعوالمه لا حد لها ولكل عالم قانون يخصه .

فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر ، وإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش إلا فى الماء ، ومن بعضها ما لو مكث فى البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله « ثانى أوكسيد الكربون » كالإنسان ، ومنها ما يقتله « الأوكسوجين » ككثير من الحيوانات الدنيا ، لعلنا كنا لا نصدق ذلك قياسا على أنفسنا لولا مشاهدتنا إياه ، فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم التى تحس والتى لا تحس ؟

وإنى لأعجب لهم كيف يتعجبون ويحكمون فى كل الأشياء بالأحكام الجازمة ، اعتمادا على بضع قوانين وصلوا إلى ظواهرها من قوانين هذا الكون التى لا يحصيها إلا الله ، ولا يدرى كنهها غير مبدعها الذى لا حد

لقدرته ولا نهاية لعلمه ؟

وليت شعرى بعد ذلك كله ، أى عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع ؟ أهل عقل الأفراد أم عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط إذا اختلفت العقول وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت بين أفراده مثل نوع الإنسان الذى هو مظهر المتناقضات ومجمع العجائب والغرائب ؟ وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾(١) . ويقول فى حق الإنسان : ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾(٢) .

وإننا لنرى فى تخبطه وتناقضه وارتباكه فى أحواله واضطرابه فى أعماله الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والقصور . فعلام تلك الكبرياء وهو من الضعف بحيث يرثى له ويشفق عليه .

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلى وقياس الغائب على الشاهد وإرجاع ما لم يعلموا إلى ما علموا . والجاهل لا يعرف قدر نفسه ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فى دائرة العدم : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾(٣) .

ومن الغريب الذى يؤسف له أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوروبيين يريد الوصول إلى القمر ويفكر فى إعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم ساكن ، بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالو : إن العلم يلد العجائب والاكتشاف يأتى بالغرائب ، ولكنهم إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء قامت قيامتهم وهدرت شقاشقهم وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من خبث وإلحاد .

وسنتكلم معهم بما يخضعون له إذا سمعوه من ساداتهم الأوروبيين الذين

---

(١) الإسراء ٨٥ . (٢) الأحزاب ٧٢ .

(٣) يونس ٣٩ .

لم يعلموا علمهم ولا أحسنوا محاكاتهم .

أما الكلام فى الجهة النقلية فأظنه لا يعنيهم كثيرا ولا يقنعهم كثيرا أو قليلا، ومع هذا فسنقول فيه كلمة موجزة من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب إلى العلم ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة ، ولكنه يؤول ويحرف اغترارا ببعض الروايات وإجابة لنزعة عنده وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة الماديين ، وإن كان مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح تمسك ببعض روايات مطعون فيها كرواية عائشة رضى الله عنها التى رواها الحفاظ وقالوا : إنها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا نطيل بها الكلام ، وكرواية شريك بن أبى نمر التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه . وليس غرضنا إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفيقهين . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل ما رآه أو يهوش بكل ما روى ، بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود والصحيح والضعيف ويجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ويرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق . ولا أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح بعد قول الله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾(١) .

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المقر باستعظام ما كان من الأمر والتعجيب منه لجلاله ، وذلك اللفظ لا يصح موقعه ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم إلا إذا كان الأمر غير معهود ولا مقدور لأحد من البشر .

---

(١) الإسراء ١ .

ولو كان الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجب ، إذ لا خطورة فى إراءة النبى عليه الصلاة والسلام آيات ربه فى نومه ، فإن هذا أمر يقع لكل أحد ، بل يرى الإنسان فى نومه رب العزة الذى هو أكبر من كل شىء . وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : إن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول « أسرى » وهو لا يقال فى النوم كما قال القاضى « عياض » لأن ما يقع فى النوم إنما هو تخييل وضرب مثل لا غير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وإنما يحسن ذلك إذا أسرى به ليلا إسراء حسيا على ما هو معهود ومعروف .

ثم يقول « بعبده » وهو نص قاطع فى الموضوع ، لأن العبد لا يطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص المكون من الروح والجسد ، ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط ، فهم لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور كما فى قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى * عبدا إذا صلى ﴾(١) . وقوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾(٢) إلى غير ذلك .

ثم يقول « لنريه من آياتنا » . ويقول فى سورة النجم : ﴿ أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾(٣) .

---

(١) اقرأ ٩ ، ١٠ .　　(٢) الجن ١٩ .

(٣) النجم ١٢ — ١٨ .

ولا شك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبى عليه الصلاة والسلام أسرى به إلى بيت المقدس وأنه عرج به إلى السماوات العلا بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى . وأنه أرى من آيات ربه الكبرى .

وإنى أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك أن تنظر معى إلى قوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى ؟ أفيسهل عليك أن تسلم أن المراء والجدل كانا فى رؤيا منامية ؟ وهل يكون فى رؤيا الروح وحدها فى النوم جحود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل والسامع حتى تذكر فيه تلك الآيات وتحصل به تلك المجادلات وينوه بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية ؟ وهل ينكرون على أنفسهم ذلك حتى ينكروه عليه ﷺ ؟

لا شك أن مناكرتهم ومجادلتهم ما كانت إلا لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لا نوما ، فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه غير معهود لديهم ولا هو فى متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح فيجوز أن تقع لكل امرئ حتى المشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : « أفتمارونه على ما يرى ؟ » . ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ويقسم أن صاحبهم ما ضل وما غوى ويقول : إنه رأى ولا يليق أن تماروه فيما رآه . هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤيا جبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح حين رآه — صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم — بحراء على صورته التى خلقه الله تعالى عليها قد سد الأفق ، كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق بينهما والقرآن لم يفرق ، وجعل الرؤية فى المرة الأخرى

عند سدرة المنتهى كالرؤية الأولى فى الأرض .

وهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين صادقة والأخرى حلما ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى » لروح النبى دون جسده ، وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه — صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم — لا على روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول : إنها رؤيا منامية مع قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ ؟

وهل يقال فى الرؤيا المنامية : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾[1] ؟ .

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ؟ فإن كل إنسان يرى بروحه ما شاء الله أن يرى من الكون ، فما وجه الافتتان وما معناه ؟

هذا بعض كلام فضيلة الشيخ يوسف الدجوى ، وقد قال المرحوم مصطفى صادق الرافعى : إن المفسرين لم يلتفتوا إلى لفظ ﴿ طغى ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ . فلو لم يكن البصر مقيدا فى جسد لطغى ولكن عدم طغيانه دليل على أنه كان محكوما بإرادات الجسد .

وقال صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن تاج فيما قال عن الإسراء :

« إن بعض الناس قد حاول — بحسن نية — أن يقرب إلى الأذهان مسألة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس بتلك السرعة الخاطفة التى لم يعهدها أحد ، فقال : إن الإسراء بتلك السرعة بين هاتين البلدتين المتباعدتين وقطع المسافات بينهما فى فترة قصيرة جدا إذا كان عجيبا غريبا

---

(١) الإسراء ٦٠ .

قبل أن تستخدم قوة البخار وقبل أن تستحدث الطائرات العادية والطائرات النفاثة والصواريخ الموجهة فإنه يجب أن يعتقد وأن يسلم به من غير تردد بعد ظهور تلك المخترعات وتلك المستحدثات ، فإن المسافات البعيدة التي يحتاج في قطعها راكب البعير أو الفرس إلى ثلاثين وأربعين يوما يمكن أن تقطعها الطائرات في بضع ساعات .

يريد أصحاب هذه المحاولات حسنو النية بهذا التقريب أن يضعوا واقعة الإسراء في المحل الذي لا غرابة فيه والذي يثبت التقدم العلمي وقوع نظائر له ومشابهات ، ليقنعوا — بصحة ذلك الإسراء وإمكان حصوله — أصحاب العلوم المادية الذين لا يسلمون إلا بما تلمسه أيديهم ويقع تحت أبصارهم ويخضع لتجاربهم وقوانين علومهم في الحوادث والكائنات .

نية حسنة ومقاصد طيبة ولكنها تنطوي على شيء غير قليل من الغرارة وعدم التبصر في مجاراة الماديين الذين لا يؤمنون بمعجزات ، فإنه لا سبيل إلى التقريب أو الربط بين أمور هي من فعل الإنسان ، يقدر عليها بتفكيره واستنباطه ويتوصل إليها بأسباب مادية تخضع لقوانين علمية ومعارف إنسانية ، وأمور أخرى لا دخل لقدرة الإنسان فيها وإنما هو مظهر كونها ومحل جريانها ، يخلقها الله فيه ويجريها على يديه ، كما قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[1] . فإن رمية واحدة بقبضة من الرمل أو الحصباء يصيب بها الرسول — ﷺ عيون فريق كبير من الأعداء في غزوة بدر — حتى يكون ذلك من أسباب هزيمتهم واندحار جموعهم — ليس أمرا عاديا مما يكون في طاقة الإنسان . وإنما هو فعل الله الخالق لكل شيء القادر على كل شيء . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

---

(١) الأنفال ١٧ .

إنه مهما تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ووجد من المخترعات ما يبلغ فى غرابته وطرافته أضعاف أضعاف ما كشف عنه العلم الحديث الآن ، فإنه على كل حال يكون نوعا آخر غير نوع المعجزات التى يجريها الله على أيدى المختارين من رسله ، فإن هذه المعجزة ليست لها وسائل ومقدمات ولا أسباب وأدوات مما يدخل فى مقدور العباد .

أما المخترعات الإنسانية فإنها لا بد أن تنبنى على قواعد وقوانين علمية ولا بد فيها من استخدام أجهزة وأدوات يتوصل فيها بالتحليل والتركيب وإحكام الصنع إلى ما يراد تكوينه من مخترعات ، فالطيران فى السماء باستخدام الأجهزة والآلات البخارية وغيرها أمر بديع وعمل إنسانى عجيب ، ولكن له أسبابه ومقدماته العلمية التى يستطيع الطيران بها فى الجو كل من يعرفها ويعرف طريقة استخدامها فى ذلك .

أما الطيران من غير تلك الأسباب والمقدمات فليس فى مقدور أحد من الناس ، وعلى هذا الأساس يكون الفصل بين المعجزات وبين كل غريب عجيب من المبتكرات والمخترعات التى تنبنى على قوانين علمية وأفكار واستنباطات إنسانية » .

إن فضيلة الشيخ يوسف الدجوى وفضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج يتحدثان عن الماديين الذين يحترمون حواسهم القاصرة عن اكتشاف ما فى الكون من عجائب ، وأحب أن أوضح هنا آخر ما وصل إليه العلم عن المادة التى يقدسها الماديون ، فلم تعد المادة حقيقة بل صارت غيبا لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب . ومن سخرية القدر أن يصبح الماديون من المؤمنين بالغيب وإن كانوا يدرون أو لا يدرون !

إن الكشف الحديث عن طبيعة المادة الصلبة بوصفها مجرد أثير فى رتبة اهتزاز معينة نفى عنها نهائيا قدرتها على خلق الحياة والمحافظة عليها ، فبعد أن

كانت المادة تصلح لتعليل الحياة أصبحت هى نفسها بحاجة إلى التعليل ، وأصبح أقرب تعليل علمى للمادة هو تعليلها بالحياة . وهكذا انقلبت قضية التعليل رأسا على عقب وأصبح السبب نتيجة والنتيجة سببا .

أو بعبارة أخرى لقد تبين أن المادة لا تصلح لتعليل أى قانون من قوانين الحياة لأنها لبست أكثر من طاقة محبوسة ، ولأن كل المادة تمثل رغم ضآلتها المفرطة فى مجموع إلكتروناتها وبروتوناتها مجموعة شمسية كاملة متحركة لا يعوزها شيء ولا تختلف عن أية مجموعة شمسية يعرفها علم الفلك إلا من ناحيتى الأحجام والأبعاد . فمن هو يا ترى ذلك الذى حبس ذرات المادة طبقا لهذا النظام البديع الذى يحير العقول ؟ ومتى وكيف جرى ذلك ؟. هذا هو الوضع العلمى الآن لسؤال تعليل المادة ، وإذا كان ثمت جواب فلن يكون إلا أن الحياة تعلل المادة أما المادة فلا تعلل الحياة بعد أن ثبت عجزها وقصورها حتى عن أن تعلل نفسها(١) .

وأختتم مناقشة أحاديث الإسراء بأن أقول إن الإسراء كان بالجسد والروح ما فى ذلك شك . وأن الله سبحانه وتعالى قد أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وأراه آياته الكبرى فى السماوات والعلا ، وأن الرسول — ﷺ — قد رأى سدرة المنتهى وقد غشيها نور الله ، وقد أوحى الله إليه الصلوات الخمس ، وقد انتهت الرحلة العجيبة عند بيت المقدس ولو كانت قد تجاوزت المسجد الأقصى لذكر ذلك القرآن الكريم .

وأعتقد أن الرسول — ﷺ — لم يكثر من الحديث عن الإسراء وإن كان القصاص قد رووا أحاديث عنه جمعها الذهبى فى مجلدين ، لأن العجائب التى رآها كانت فوق تصور رجال عصره بل لعلها تكون فوق

---

(١) الإنسان روح لا جسد . للدكتور رءوف عبيد .

تصور الناس فى أى عصر ، فاتساع الكون الذى زاره غير محدود أو محدود ولكن قطره يقاس ببلايين السنين الضوئية .

إن الإسراء معجزة تفوق تصور عقول البشر فى كل عصر ، فلا الطائرات ولا الصواريخ ولا أى من المخترعات الحديثة أو مخترعات المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها تستطيع أن تعطينا صورة صحيحة عن إسراء الله بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

أما ما يروى من أحاديث عن الإسراء فهى من اختراع القصاص ، وفى رأيى أن أغلب هذه الأحاديث نتاج عقول تصورت ملكوت الله على قدر علمها ، وهى أول قصة أدبية إسلامية استوحيت من آيات الإسراء والنجم ، وقد اشترك فى تأليفها أكثر من مؤلف ، وكانت مصدر إلهام أبى العلاء المعرى لما كتب رسالة الغفران ، وكانت رسالة الغفران وحى دانتى عندما كتب الكوميديا الإلهية « جحيم دانتى » .

للمؤلف

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

فى ٢٠ جزءا

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـــ بنو إسماعيل	سيمبر ١٩٦٦
٤ ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧ ـــ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ـــ الهجرة	ستمبر ١٩٦٨
١٢ ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـــ صلح الحذيبية	يونيه ١٩٦٩
١٦ ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٧٧٣٤
الترقيم الدولى : 4 - 0624 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٧٥ قرشا